مدخل

1. مفهوم النقد وأهدافه:

النقد لغة : هو النقد والتنقاد، وهو تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها، ونقدت الدراهم وانتقدتها، إذا أخرجت منها الزيف، والنقد أيضا تمييز الدراهم وإعطاؤها إنسانا، وأخذها يسمى الانتقاد، ونقد الشيء ينقده نقدا إذا نقره بإصبعه كما تنقر الجوزة، ونقد الطائر الفخ ينقده بمنقاره أي ينقره، والمنقاد: منقاره، والإنسان ينقد الشيء بعينه: وهو مخالسة النظر لئلا يفطن له. وفي حديث أبي الدرداء أنه قال: إن نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تركوك، ومعنى نقدتهم أي عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله[1].

وإذا كان النقد لغة هو تمييز الدراهم وإخراج الزائف منها، فإن النقد الأدبي أيضا يهدف إلى الكشف عن العناصر الأدبية التي إذا توفرت للأديب كلها بلغ بأدبه غايته من التأثير والنفع، وينقص هذا التأثير بقدر نقص تلك العناصر، بمعنى أنه يعين على فهم الأدب وتذوقه والحكم عليه ومعرفة مواطن الجمال فيه، وتمييز الجيد من الرديء فيه، كما أنه يوجه الأدباء للرقي بإبداعهم نحو الجودة والفائدة والكمال، وأيضا يعمل على تربية الذوق الناضج لدى الطلبة، ويمنحهم القدرة على التمييز والحكم على مستوى النصوص الأدبية من حيث الأفكار والألفاظ والأسلوب والتراكيب والصور والعاطفة والموضوع.

مما ذكر نصل إلى أن النقد الأدبي ليس الهدف منه الاقتصار على كشف الجوانب السلبية في العمل الأدبي، أو إعلان الحرب والعداء ضد الأديب، بل النقد الأدبي هو عملية وصفية تبدأ بعد عملية الإبداع مباشرة، فلا يمكن تصور نقد دون إبداع، سواء أكان شعرا أم نثرا، لأن النقد وجد لخدمة الأدب؛ فالنقد الأدبي قد يتناول عملا أدبيا واحدا أو إنتاجا أدبيا لأديب من الأدباء أو حركة أدبية بكاملها خلال مرحلة زمنية معينة، أو غيرها من الأنشطة الأدبية، ومن تم فإن موضوعات النقد الأدبي كثيرة ومتنوعة بتعدد وتنوع الإنتاجات الإبداعية وكثرة المدارس والاتجاهات والتيارات الأدبية.

أما تاريخ بداية النقد الأدبي فيمتد إلى مراحل متقدمة لعلها تبدأ منذ ظهور أول الأعمال الأدبية، فما يبديه المتلقي من استحسان أو استهجان اتجاه الإنتاج الأدبي، وما

---

1. اللسان : نقد.

يقدمه المتلقي للمؤلف من نصح أو إعجاب يعتبر في حد ذاته موقفا نقديا، لذلك كان النقد في بدايته يرتبط بالذوق أكثر من المؤهلات العلمية.

وعموما، فالنقد الأدبي هو نوع من محاكمة الآثار الأدبية والحكم لها أو عليها، والفصل بين الصالح والفاسد بينها، ثم إصدار الحكم، ولن يتم ذلك الحكم إلا من خلال الكشف عن جوانب النضج الفني في الإنتاج الأدبي، وتمييزه عما سواه عن طريق الشرح والتعليل، والناقد الحق هو الذي يقدم التعليلات والمبررات في تقييمه للأعمال الأدبية حتى وإن إخطأ، أما الذي يصدر الأحكام على الأعمال الأدبية دون تبرير فني، فلا يعتبر ناقدا وإن أصاب، كما يذهب إلى ذلك الدكتور محمد غنيمي هلال[2]، فالنقد غالبا ما يرتبط بالوصف والتفسير والتأويل والتحليل والتقويم، لأن هدفه هو قراءة الأثر الأدبي ومقاربته قصد تبيان مواطن الجودة والرداءة فيه، يقول الدكتور عماد حاتم: "النقد الأدبي هو تقييم العمل الأدبي وبيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة لسواه ... إنه نوع من محاكمة الآثار الأدبية والحكم لها أو عليها والفصل بين الصالح والفاسد بينها ثم إصدار الحكم"[3].

لذلك يتطلب النقد الصحيح استعدادات فنية رفيعة ومستوى ثقافيا عاليا، ولعل هذا ما يفسر كون تاريخ الأدب لم يحفظ سوى أسماء عدد محدود من النقد سواء في القديم كالجاحظ وابن قتيبة والجمحي والقاضي الجرجاني والآمدي والعسكري وابن رشيق .. وفي الحديث كسلامة موسى وطه حسين ومحمد مندور والعقاد وإحسان عباس وغيرهم، هؤلاء جميعا "ساهموا في تكوين عملية النقد الأدبي وساهموا في تربية الأذواق واستطاع بعضهم أن يقوم بثورة شاملة في المفاهيم والأذواق وأن يعيد نظرنا في عدد من القيم الجمالية ويحدث نوعا من الانعطاف، ليس فقط في حركة النقد الأدبي بل وفي حركة الفكر"[4].

من هنا يتضح أن أهمية النقد كبيرة تتجلى في توجيه عملية الإبداع وتساعده على النمو والازدهار والتقدم، كما أنه يعمل على تقويم وتقييم الإنتاج الأدبي، فيميز فيه بين مواطن الجمال والقبح، ويبرز الجودة من الرداءة، والطبع من التكلف والتصنيع والتصنع، وذلك من خلال الخضوع لمجموعة من الخطوات الضرورية والتي تتمثل في:

---

2. النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط6/ 2005.
3. النقدالأدبي: قضاياه واتجاهاته الحديثة، ص11-12.
4. نفسه، ص12.

- قراءة النص الإبداعي؛
- ملاحظة النص؛
- تحليله مضمونا وشكلا؛
- تقييمه إيجابا أو سلبا؛
- وفي الأخير ترد عملية التوجيه، وهدفها تأطير المبدع وتدريبه وتكوينه وتوجيهه الوجهة السليمة.

إلا أن هذه العملية في حد ذاتها وهذه الخطوات تختلف حسب المؤهلات الثقافية والاستعدادات الفكرية لكل ناقد، لذلك اختلفت المناهج المعتمدة، فإذا كان بعضها يكتفي بعملية الوصف الظاهري الداخلي للنص، كما هو الشأن مع بعض المناهج البلاغية القديمة، إضافة إلى بعض الماهج الحديثة كالمنهج البنيوي اللساني والمنهج السيميائي، فإن هناك مناهج تتعدى الوصف إلى التفسير والتأويل، كما الحال مع المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي والبنيوي التكويني. لذلك اختلفت المناهج المعتمدة بحسب اختلاف المشارب التي يستقي منها كل ناقد والتوجهات التي ينطلق منها، لكن قبل الخوض في هذه المناهج نتساءل عن ماهية المنهج والوظيفة التي يقوم بها، وعلاقته بالتطورات التي عرفتها العلوم ابتداء من القرن التاسع عشر.

2. مفهوم المنهج:

إذا حاولنا البحث في المعاجم اللغوية المختلفة عن مدلول كلمة "المنهج"، سنجدها تدل في مجملها على الخطة والطريق والهدف والسير الواضح والصراط المستقيم، يقول محمد بن منظور في مادة نهج: "طريق نهج: بين واضح، وهو النهج، وسبيل مَنهج: كنهج، ومنهج الطريق: وضحه، والمنهاج كالمنهج، وفي التنزيل: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[5]، وهذا يحيلنا إلى أن المنهج في الاصطلاح خطة واضحة المعالم هدفها الوصول إلى نتيجة ملموسة من خلال الاعتماد على مجموعة من الخطوات والاجراءات، لذلك حدد "بول رويال" المنهج بأنه: «فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة إما من أجل

5. لسان العرب: مادة نهج.

الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين»[6].

وعرف السيد تقي الدين المنهج بأنه: «خطة معقولة لمعالجة المشكلة وحلها عن طريق استخدام المبادئ العلمية المبنية على الموضوعية والإدراك السليم لا البداهة والتخمين أو التجربة العابرة أو مجرد المنطق»[7].

وعرف علي جواد الطاهر المنهج أيضا بأنه «طريقة يصل بها الإنسان إلى الحقيقة»[8].

ويقصد بالمنهج النقدي في مجال الأدب، تلك الطريقة التي يتبعها الناقد في قراءة العمل الإبداعي والفني، وذلك قصد استكناه دلالاته وبنياته الجمالية والشكلية، وهذا ما يذهب إليه الدكتور صلاح فضل حين يقول بأن المنهج النقدي في الأدب «هو الذي يتعلق بالدراسة الأدبية، وبطرق معالجة القضايا الأدبية والنظر في مظاهر الإبداع الأدبي بأشكاله وتحليلها، وهو بهذا المفهوم يتحرك طبقا لمنظومة خاصة به، تتألف من مستويات مختلفة»[9].

والذي نستخلصه من هذه القولة، وخصوصا إذا حاولنا عقد مقارنة بين المذهب والمنهج، هو أن المذهب له بطانة أيديولوجية يصعب تحريكها، بينما يعتمد المنهج على مفاهيم عقلية أو منطقية يمكن تحريكها وتغييرها، وبالتالي يصعب على الأديب الذي يعتنق مذهبا أن يغيره بسرعة، بينما يسهل على المفكر الذي يقتنع بمنهج محدد ثم يكتشف قصوره في بعض الجوانب أن يستكمله أو يعدله بمرونة أوضح بمعنى أن الناقد يحدد مجموعة من النظريات النقدية والأدبية ومنطلقاتها الفلسفية والعلمية، ويختزلها في فرضيات ومعطيات ومسلمات، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التأكد من تلك التصورات عن طريق التحليل النصي ليستخلص مجموعة من النتائج والخلاصات التركيبية، ولعل هذا ما سنجد الدكتور عباس الجراري يتحدث عنه حين يقول: «ولقد شاع أن المنهج مجرد وسيلة للبحث عن المعرفة وفحصها، أي مجرد خطة مضبوطة بمقاييس وقواعد وطرق تساعد على الوصول إلى الحقيقة، وتقديم الدليل عليها، هذه مجرد أدوات إجرائية، وهي في نظرنا لا تمثل إلا جانبا

---

6. منطق بول رويال، وكالة المطبوعات، الكويت، 1977، ص5.
7. أصول البحث الأدبي ومناهجه، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1984.
8. منهج البحث الأدبي، مكتبة النهضة، بغداد، 1972،ص15.
9. مناهج النقد المعاصر: ص10.

واحدا من المنهج أقترح تسميته بالجانب المرئي في المنهج"، لذلك يجب النظر إلى المنهج "لا باعتباره مجرد أسلوب أو وسيلة تضبطها خطة وقواعد تنير السير في طريق البحث عن الحقيقة وتساعد على الوصول إلى نتائج معينة، ولكن باعتباره منظومة متكاملة تبدأ بالوعي والرؤيا المشكلتين لروح المنهج وكنهه اللامرئي، وتنتهي بالعناصر اللازمة لتحقيق تلك الرؤيا وذلك الوعي من خلال الكشف والفحص والدرس والتحليل والبرهنة للإثبات أو النفي"[10].

وما تلك العناصر إلا مجموعة من المعارف اللازم توفرها للناقد، والتي تتيح له التعامل مع العديد من المناهج التي اعتبرت مفاتيح متنوعة هدفها خدمة النص الأدبي، ذلك أن "المناهج جميعا يجب أن توظف في خدمة الأثر الأدبي وفهمه وتقييمه، ولا يجوز البثة تمديد الأثر الأدبي على سرير بروكست[11]، أي منهج جاهز سلفا"[12].

فالأمر الطبيعي في مجال النقد أن يكون النص الأدبي هو الذي يستدعي المنهج النقدي، والأمر الشاذ وغير المقبول حينما يفرض المنهج قسرا على النص الأدبي، خصوصا وأن الكثير من النصوص الإبداعية الأدبية تستدعي أكثر من منهج في التحليل والدراسة، إلا أن هذا لا يعني أن نخضع النص المعين لعدد من المناهج الغير منسجمة فيما بينها، وهنا يقول صلاح فضل: "يجب التأكيد على أمرين من حيث طبيعة التداخل والتخارج بين المناهج المختلفة:

الأول: أن هذا التداخل لا يمكن أن يتم في ظل منهج متكامل مفتعل ملفق، ولا بد أن يتم بين عناصر قابلة للاتساق المعرفي وليست متناقضة؛

الثاني: أنه يوظف دائما لاستكمال الإجراءات التي تؤدي إلى نجاعة التحليل النقدي للظواهر الأدبية"[13].

---

10. د.عباس الجراري: خطاب المنهج/ منشورات النادي الجراري/ ط2/ 1995/ ص40-41.

11. بروكست هو قاطع طريق يتسم بالقوة والشراسة وحب التعذيب؛ وبروكست وسريره أسطورة عادة ما تستعمل في المجال السياسي للتعبير عن فكرة الرقابة والمطابقة ورفض الاختلافات البشرية .. وفرض نظام تعسفي يسعى لتحويل أفراد المجتمع إلى متشابهة ومطابقة لنموذج وهمي.

12. جورج طرابيشي: الأدب من الداخل/ دار الطليعة/ 1978/ ص8.

13. مناهج النقد المعاصر: ص17.

ولعل نفس الفكرة حاول الدكتور محمد الدغمومي مقاربتها في قوله بعد أن تحدث عن المنهج وقيمته ووظيفته التي هي خدمة الأثر الأدبي، ولكن دون الاعتماد على المنهج الجاهز أو التلفيق بين المناهج: "والنتيجة أحد أمرين: إما أن يمتلك الناقد كل المناهج، وإما ألا يقرب إلا النص الذي يتوافق والمنهج الذي يتبناه؛ وفي الحالة الأولى، على الناقد أن يحيط إحاطة شاملة بالمنهج لكي يرى المناسب منها، أو ليجد فيها ما يناسب النص ويحلله تحليلا نفسيا وماديا وبنيويا وجماليا وذوقيا، أو يختار مفتاحا واحدا، وفي هذه الحالة الثانية عليه أن ينظر ولادة النص الذي يمكن أن يقبل الخضوع للمنهج".

وكلا الأمرين يدل على التعسف وسوء الفهم للنقد والمنهج، ذلك أن الكثير من النقاد يتسلحون بمناهج كثيرة ومتنوعة وأكثر حداثة وعمق للتعامل مع نص سطحي مباشر لا يحتاج إلى تحليل دقيق، والعكس صحيح، بحيث نجد من يتعامل مع نصوص أكثر تعقيدا وغموضا بمناهج تقليدية وقاصرة لا تحقق المبتغى والمطلوب منها، لذلك على الناقد الأدبي التزود بالثقافة الواسعة والاطلاع على مختلف العلوم وخاصة منها العلوم الإنسانية.

وعموما يبقى التسلح بالمنهج أمر ضروري لتحليل النصوص الأدبية المختلة، سواء أكانت شعرا أم نثرا بمختلف أشكاله: قصة أو رواية و مسرحية ... وهنا يقول الدكتور وليد قصاب: "للمنهج النقدي أهمية كبرى، ولا يستطيع الدارس أن يتوغل في أعماق العمل الأدبي توغلا منظما دقيقا إذا لم يتسلح بمنهاج واضح يضيء له الطريق، ويبصره مواقع أقدامه"[14].

3. نشأة علم المناهج:

اهتم بقضية المنهج الكثير من العلماء والمفكرين على مر القرون، ولعل الفلاسفة كانوا أسبق هؤلاء جميعا حيث ظهر المنهج مع كتابات أفلاطون وأرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم بعد ذلك انتقل إلى الميدان التربوي بداية من القرن السابع عشر مع العالم التشيكي **جون آموس كومينوس** (1592-1670)، وهو رجل دين مسيحي، انتقد البرامج التربوية الموجودة في عصره، حيث نادى بتطوير في طرق تصنيف الموسوعات والمعارف، حيث نبه على أن تصنيف كل علم أو فن يجب أن يبتدئ من البسيط المعروف إلى الصعب المجهول لأكثر البشر، ليطبق ذلك فيما بعد في مؤلفاته الدراسية، حيث اقترح تنظيم التعليم في مراحل متدرجة تبدأ بالأبواب البسيطة السهلة لتزداد الصعوبة تدريجيا، وكان يبني كل

14. وليد قصاب: مناهج النقد الأدبي/ ص17.

باب على ما قبله، حتى يسهل الفهم، ويبين لكل المتلقين بأن العلم شيء متصل، وأن المعرفة بالأشياء البسيطة الواضحة هو الذي أدى لمعرفة العلوم المركبة الضخمة.

وبعد كومنيوس نجد **فريدريك فروبل** في القرن التاسع عشر (1782- 1852)، كان مربيا ألمابيا، أول من أسس روضة أطفال عام 1837، وأطلق عليها حديقة الأطفال، وذلك لمساعدة الأطفال على التعلم بصورة طبيعية، وكان برنامجه يشمل اللعب الحر وعمل النماذج بالطين وقطع الورق، وكذلك صمم مواد تعليمية قياسية ظلت مستخدمة لسنين طويلة، ومن المبادئ التي نص عليها فروبل هو إيجاد صلة بين المناهج الدراسية والحياة الاجتماعية المعاصرة للطفل.

ولعل العرب القدماء في مؤلفاتهم اهتموا بمنطق أرسطو وراحوا يترجمونه ويلخصونه ويشرحونه، واستخدموا المنطق في مصنفاتهم العديدة، وخاصة فيما يتصل بالنحو واللغة وأصول الدين .. لكن الدراسة المتخصصة في المنهج وجوانبه المتعددة، وظهور علماء متخصصين بالمنهج والنواحي المرتبطة به، كل هذا لم يبدأ إلا في القرن العشرين، وخاصة منذ عام 1918، عندما ظهر أول كتاب مختص بالمناهج من تأليف **فرانكلين بوبيت** معنون بـ"المنهج"، ويعتبر هذا الكتاب معلما يحدد بداية ظهور علم المناهج كعلم وتخصص مستقل بذاته، وقد ارتبط ظهور المناهج الدراسية بأشكالها المختلفة بازدهار الحركة العلمية والعقلية منذ القرن التاسع عشر، وبتشعب المعارف والعلوم وكثرتها، وبتعدد الآراء والأفكار والتصورات.

وهنا يقول الدكتور وليد قصاب: "وكما تطور العلم ، واتسعت ساحاته، وغزرت آفاقه، تطور الأدب والدرس الأدبي كذلك، ثم راح الدرس الأدبي يستفيد من مناهج العلوم المختلفة: إنسانية وطبيعية، ويجند كثيرا من نتائجها في عمله، فأصابه التوفيق والعمق حينا، وأصابه الإخفاق والتكلف حينا آخر، ذلك أن الأدب والدرس الأدبي – وإن التقيا مع العلم في جوانب، أو استفادا منه في قليل أو كثير – متميزان عنه، ولكل منهما خصوصية لا ينبغي لها أن تغيب في الآخر أو تتماهى فيه، وإلا أضاع طبيعته الخاصة"[15].

وقد اتجه البحث الأدبي إلى العلم والاستفادة من إنجازاته منذ القرن الثامن عشر، يعني قبل تبلور علم المناهج، وإنما منذ بدء عصر العلم، حيث انبهرت النفوس والعقول

15. وليد قصاب: مناهج النقد الأدبي/ ص18.

بالمكتشفات والبحوث التي اشتغل عليها العلم، والنتائج التي حققها، فرافق ذلك التطور العلمي تطور أدبي، خصوصا وأن الأدب هو أيضا جزء من النهضة والتطور، فانفتح على تلك العلوم المختلفة واستفاد منها، كما انفتحت عليه كذلك بعض العلوم واستفادت منه، وهكذا نلاحظ أن المنهج في النقد الأدبي، بعد أن كان مرتبطا بالمنطق الذي تأثر فيه من الفلسفة اليونانية، وملتزما بحدود العقل، أصبح مرتبطا في عصر النهضة بحركة التيار العلمي، هذا التيار لا يحتكم إلى العقل فحسب، بل يحتكم بالإضافة إلى ذلك إلى الواقع ومعطياته وقوانينه.

ولما كان الأدب جانبا من الحياة الثقافية، فإنه كان موضع نظر تخصصات متنوعة، ولما تطورت أنواع العلوم، استفاد منها الأدب والنقد على حد سواء، وهنا يقول الدكتور وليد قصاب: "كانت الدراسات التاريخية تتقدم وتتطور، فاستفاد منها النقد الأدبي، فطور وعمق ملحوظاته التاريخية القديمة، وراح يتجه إلى درس تاريخي مؤصل يقوم على منهج علمي.

وكانت الدراسات الاجتماعية والنفسية تحرز تقدما هائلا .. فكان لابد أن يستفيد الدرس الأدبي –الذي انفتح على جميع المعارف والعلوم– من ثمرات ما حققته الدراسات الاجتماعية والنفسية من إنجازات .. وأن يحاول تطبيقها في عمله، فعرف –في ميدان النقد الأدبي– المنهج الاجتماعي بأشكاله المتعددة، وعرف المنهج النفسي بأشكال وصور متعددة كذلك"[16].

وخلاصة القول، هو أن نشوء علم المناهج في النقد ظهر وتطور مع عصر النهضة بتطور المعارف والعلوم على اختلاف أشكالها وألوانها، تلك العلوم التي أفادت النقد كثيرا، وعملت على تطوير الدرس الأدبي والنقدي.

---

16. وليد قصاب: مناهج النقد الأدبي/ ص18.